كيف ينعدم التوافق الاجتماعى

عبد المنعم عبد العزيز الملجى
مدرس الفلسفة بحلوان وبناقادن

نظرة القانون إلى الشذوذ الاجتماعى

كنت تلميذاً بالمدرسة الابتدائية حين ضبط أحد أقرانى متلبساً بسرقة كتب وأدوات مدرسية . وكان ناظر المدرسة شديد الحرص على أخلاقنا ودفعته المبالغة فى هذا الحرص إلى ارتكاب غلطة تربوية تركت فى نفسى أعمق الأثر .

أوقف تلاميذ المدرسة جميعاً صفين متقابلين ، وأجبر السارق على أن يمر بين هذه الجموع وقد علق على ظهره لوحة كتب عليها « اللص » ، وكان على كل تلميذ أن يبصق فى وجهه .

لم يكن الناظر يبغى انتقاماً بل إصلاحاً ولكنه أخطأ طريق الاصلاح ، لأنه نظر إلى فعل السرقة نظرة القانون إلى الجريمة . نظر إلى الفعل فى ذاته ، ومن حيث خطره على المجتمع ، ولم يهتم بقيمة هذا الفعل بالنسبة للفاعل . وكما أن القانون يبحث فيما إذا كان الفعل فى ذاته شائناً أو غير شائن دون نظر إلى دلالته بالنسبة للمجرم كذلك فعل الناظر .

حقاً إن القانون يتلمس نوايا المجرم ، ويفرق بين الفعل الناتج عن انفعال شديد والفعل الذى تم فى حالة عادية ، ويعمل حساب الجنون أو الجهل أو الضعف العقلى ، ولكن من الواضح أنه لا يتعدى حد تلمس النوايا والدوافع الشعورية السطحية ، بينما تحتم علينا الدراسة العلاجية للسلوك الإنسانى أن نتلمس الدوافع فى حياة الفرد اللاشعورية ، حيث أن أقوى دوافع السلوك — متوافقاً كان أو غير متوافق مع المجتمع — تكمن فى هذا الجانب من الحياة النفسية .

ويهمنا فى هذا المقال أن نكشف عن العمليات النفسية التى تتكاتف على إحداث الانحراف الخلقى فى سلوك الحدث ، لنبين كيف أن أى انحراف خلقى يعنى شيئاً أكثر من أن يكون جرماً فى حق المجتمع فهو دليل على إخفاق الفرد فى التوافق مع الجماعة ، وتعبير عن اضطراب يصيب الدوافع النفسية الشعورية واللاشعورية . وإذا كانت التعبيرات والظواهر النفسية العادية نتيجة عمليات نفسية فى تداخل وتفاعل ديناميكى فيما بينها ؛ فإن

الظواهر اللااجتماعية (المضادة للمجتمع أو الأخلاق) فى سلوك الطفل أو المراهق ليست فى دورها سوى مظاهر خارجية لمجموعة من العمليات النفسية المختلة . ونخطئ إن اعتبرنا أى عمل شاذ نتيجة مباشرة لعامل خارجى بسيط كفساد الجو المنزلى مثلا ، أو الفقر . . . لأنه ينتج عن تأثير هذا العامل الخارجى على مجموعة العمليات النفسية التى تحدد شخصية الطفل ونموذج توافقه مع الحياة .

مبدأ « اللذة » و « الواقع »

يأتى الطفل هذه الحياة معبأ بدوافع وحوافز غريزية لا تختلف عن تلك التى يحملها الراشد من الأفراد . وكل ما هنالك اختلاف فى التعبير ؛ فالطفل يعبر عنها تعبيراً أنانياً . فكل ما يبغى أن يشبع هذه الدوافع دون أن يقيم وزناً للعالم الذى يحيا فى كنفه ، إذ ليست لديه قدرة على أن يحد من رغباته ودوافعه ؛ أو يؤجل إشباعها كما يوفق بينها وبين مطالب الجماعة التي كثيراً ما تتعارض مع مطالب الغريزة . وتفسير ذلك أن حياة الطفل النفسية يحكمها فى بدء تكوينها « مبدأ اللذة » فغايتها اللذة فحسب ، اللذة التي تعمى عن المستويات الخلقية والتقاليد الاجتماعية .

ولكن فى الطفل إلى جانب سيل غرائزه العرم ، إمكانيات فطريه على التكيف للظروف والمثل الاجتماعية ، إلا أنها لا تكفى وحدها أن تحقق هذا التكيف ، ولا مناص من أن تتدخل التربية والخبرة الشخصية ، لتنمية هذه الإمكانيات ، واستغلالها لتحقيق توافق الطفل مع الجماعة . وهكذا يتلقن الطفل من والديه ، أو ممن يقوم مقامهما مثل الجماعة ومطالبها ، ويتشربها عن طرق الإيحاء أحياناً ، والتوجيه الصريح أحياناً أخرى . ويتعلم بخبرته الشخصية أن يتنازل عن بعض اللذات العاجلة (التي تثير سخط المجتمع) ، فى سبيل أخرى آجلة (يرضى عنها المجتمع) ، ويفطن بالتدريج إلى أن رضاء المجتمع يجلب لذة لا تقل عن اللذة التي يجلبها إشباع الرغبات الغريزية على نحو بدائى . معنى ذلك أن مبدءاً جديداً قد نشأ واتخذ مكانه إلى جانب مبدأ اللذة ، فى التحكم فى أسلوب حياة الفرد . هذا هو « مبدأ الواقع » ، الذى يحمى الفرد من مطالب اللاشعور الغريزية ، ويمكنه من التعامل الناجح مع الجماعة . واكتمال هذا المبدأ خلال نمو الطفل ، يعنى حدثاً خطيراً في النمو النفسى ، هو تحقق « التوافق الاجتماعى » .

فالتوافق مع الحياة عملية تبتدئ منذ الطفولة المبكرة . وفترة تكونه الحاسمة هى السنوات الأولى من حياة الطفل ، وأهم عواملها البيئة المنزلية وعلى الأخص تأثير الوالدين.

وما مهمة التربية إلا أن تصوغ إمكانيات الطفل فى قالب اجتماعى مقبول ، فتنقله من المستوى اللا اجتماعى إلى المستوى الاجتماعى ، وذلك بأن تعلمه كيف يتخلى عن السلوك الطفلى من أجل سلوك رشيد اجتماعى ، ولها علاوة على ذلك مهمه أخرى هى الحيلولة دون نمو الإمكانيات المضادة للمجتمع فإذا أخفقت فى تحقيق هذين الغرضين ، نشأت شخصية عاجزة عن التوفيق بين رغباتها وبين مطالب المجتمع ، شخصية لا اجتماعية أو معادية للمجتمع ، دائبة العمل على إلحاق الأذى بأفراده .

أو قد تنشأ شخصية عصابية (مريضة بالهستيريا أو الملانخوليا الخ . . .) عاجزة عن التعامل النافع مع المجتمع .

ويهمنا فى هذا المقال الصنف الأول « الشخصية اللا اجتماعية أو المعادية للمجتمع » فلنبين كيف ينعدم توافقها مع المجتمع .

اختلال الطاقة الغريزية

لا يتحقق التوافق الاجتماعى — الذي شرحنا مدلوله — إلا إذا سار النمو الانفعالى للطفل سيراً سوياً ، فلا يلحقة أزمات أو صراع ، ولن يسير على هذا النحو السوي إلا تحت شرط أساسى ، هو أن تجد الطاقة الغريزية وسيلة سليمة للتعبير عن نفسها .

فى الطفل حاجة إلى الحب والمحبة (أي إلى أن يحب غيره ويحبه غيره) . إلا أن هذا الحب ينبغى أن يكون معتدلا ، فيأخذ فى النقصان من حيث شدته قبل مرحلة المراهقة ، حين تحتم الصحة النفسية أن يطرح الطفل موضوعات خارج الأسرة . والاضطراب الذي يلحق بالطاقة الغريزية عبارة عن تثبيت عند مرحلة الطفولة نتيجة الإفراط فى بذل الحب للطفل ، أو عن فقدان الأمان الانفعالى نتيجة الحرمان من الحب أو الحيرة بين المعامله اللينة والمعاملة الجافية . وهذا الاضطراب فى نمو الطاقة الغريزية هو مصدر الشخصية العصابية أو اللا اجتماعية . ويتضح ذلك من عرض بعض الحالات .

جريمة الإفراط فى العطف

« س »[1] صبي فى الخامسة عشرة من عمره ، طالب بمدرسة ثانوية ، ذكاء فوق المتوسط العام . ارتكب « جريمة » قتل ، وتبين من التحقيق ومن تقرير الطبيب

(١) استقيت هذه الحالة من مقال كتبه Broadwin فى كتاب : Psycho Analysis To-day تحت عنوان : Juvenile Delinquency

النفسى الذي داوم تحليل الصبي ثلاثة أعوام ، أن حادث القتل كان خاتمة من الأحداث جرت خلال الساعات الأربع والعشرين السابقة ، وهذه بدورها كانت نتيجة أسلوب توافقه العام مع الحياة ، ذلك الذي حددته التربية والخبرات الأولى للطفل .

وهاك تحليل لحوادث الساعات الأربع والعشرين :—

كان يتناول الطعام مع أمه التي عنفته حينما رأته يغرس السكين فى الزبد كما لو كان يطعن شخصاً ، فغضب غضباً شديداً ، ذلك لأن أمه فضحت نزعة شريرة فى نفسه ، فقد كان يخيل إليه أنه يطعن غريماً له فى حب إحدى الفتيات . وفى سورة الغضب هذه نهض مسرعاً إلى بيت أحد رفاقه حيث شاركه احتساء الخمر حتي غاب عن وعيه ، وخرج على هذه الحال إلى بيت آخر يجمع رفاقه بنين وبنات ، من بينهن حبيبته التي كان يحبها حباً عنيفاً خلواً من العلاقة الجنسية ، رغم تعدد علاقاته الآثمة بغيرها من الفتيات . وبينا الجمع فى مرح إذا به يهجم على إحدى الفتيات وهو تحت تأثير الخمر بغية الاعتداء عليها . أغضبت فعلته هذه حبيبته ، حتي أنه لما حياها فى الصباح التالى لم ترد التحية ، فلما استفسر من فتاة أخري عن سلوكها نحوه أخبرته بما بدر منه فى الليلة السابقة ، فعجب (لأنه لم يكن فى وعيه) ، وثار حنقه على صديقته أن ردته وأعرضت عنه ، وأحس بكرامته المجروحة ، فعول على الانتقام بأن يسهر مع فتاة أخري كى يغيظ حبيبته . ولكن هذه الفتاة لم تكن لتقبل دعوته إلا إذا تأكدت من امتلاء جيبه بالنقود .

وأخيراً قر قراره على أن يهاجم عجوزاً فى متجره ويبتز منه النقود التي يريد ، وفعلا اصطحب أحد أقرانه وحمل بندقيته إلى حيث يقيم العجوز ، وهناك هدده بإطلاق النار (مقلداً أبطال أفلام العصابات التي أولع بها كثيراً) .

أما العجوز فظن الأمر مجرد لعب أطفال ولم يعبأ بالتهديد ، وتقدم خطوات نحو « س » الذي لم يجد مجالا للتقهقر فقد اعترضته إحدى الموائد ، وفجأة ضغط دون أن يشعر على الزناد ، فانطلقت الرصاصة ، وتمت الجريمة فى لحظة خاطفة .

أسقط فى يد « س » ولما رأى زميله يرتجف ويهم بالاستغاثة هدده بالقتل إن لم يصمت أو إن أفشى السر . وعاد إلى منزله ، فصعد الدرج وهو يصفر كالمعتاد ثم وضع البندقية فى موضعها ، وذهب إلى الفراش بعد أن تناول طعام العشاء . هذا كل ماحدث بالتفصيل فى الأربع والعشرين ساعة السابقة لوقوع الحادث .

وعند ما سئل « س » عن الدوافع التي دفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة ، أجاب أنها الرغبة في الحصول على النقود كى ينتقم من الفتاة التى جرحت كرامته ، وأضاف إلى ذلك

أنه كان متأثراً بأفلام العصابات . والحقيقة أن هذه الدوافع كانت دوافع ثانوية جداً ، أما الدوافع الحقيقية فلم يكن يدركها، لقد كانت كامنة منذ أمد بعيد في أعماق اللاشعور . ومن الخطأ أن نفصل سلوكه في ذلك اليوم عن النموذج العام لتوافقه مع الحياة . ولن تتيسر لنا معرفة ذلك النموذج إلا إذا أحطنا علماً بما يلى : —

(١) تطور حياته الغريزية .

(٢) علاقاته المختلفة بالأفراد الذين اتصلو به .

(٣) مختلف الخبرات التى بلاها فى حياته السابقة .

(٤) أسلوبه في مواجهة ما كان يعتوره من مشاكل نفسية داخلية .

(٥) أسلوبه في مواجهة ما كان يعترضه من مواقف خارجية .

فإذا عرفنا هذا النموذج العام أمكننا أن نبين كيف أن سلوكه الاجتماعى كان تعبيراً عن إخفاقه في التوافق مع الحياة . وهذا السلوك اللا اجتماعي يتكون من العناصر الآتية : —

(١) سرقة (٢) كذب . (٣) جشع جنسي . (٤) وأخيراً القتل .

العرَض والصراع النفسى

يحسن قبل تحليل الحالة أن نشير إلي حقائق هامة يستند إليها التحليل . فالطفل حين يجابه المجتمع تتنازعه قوتان ، قوة الدوافع اللاشعورية ، وقوة «الأنا الأعلى»[١] ، الأولى تبغى الإشباع والثانية تمنع الإشباع . « والأنا »[٢] بينهما نهب لهذا الصراع . ولابد من حلول ثلاثة يقدمها الأنا حلا لهذا الصراع .

١ — منع الرغبة الغريزية عملا بمبدأ الواقع ، وفي هذه الحالة يقال إن الطفل أعلى الرغبة بترجمته إياها إلى شكل من أشكال السلوك يقبله المجتمع .

٢ — تغليب الرغبة الغريزية على الأنا الأعلى (القوانين الخلقية) ، فيبدو الشخص « متوحشاً » بسلوكه سلوكا بدائياً .

وينتفي بهذين الحالين أي صراع نفسي .

٣ — ولكن قد يحدث أن تكون كلا القوتين جارفتين بحيث يتعذر تغليب إحداهما

---

(١) الضمير اللاشعورى الذى ينطوي على المثل العليا والمستويات الأخلاقية .

(٢) الذات الشعورية . أنظر قاموس المصطلحات النفسية — مجلة علم النفس — عدد أكتوبر سنة ١٩٤٥

على الأخرى ، وبذلك ينشأ صراع نفسى مؤلم ، فيعمد الشخص إلى محاولة التوفيق بين القوتين : الرغبة اللاشعورية ونواهي « الأنا الأعلى » . وينتج عن هذا التوفيق سلوك شاذ فيه إرضاء جزئي لكل من الدافعين .

مثال ذلك فقد يغضبك شخص ما فتثور في نفسك رغبة الانتقام ، إلا أن الدافع الاجتماعي يمنعك من أن تسلك سلوكا بدائيا كالاعتداء بالضرب . إذا تعذر تغليب أحد الدافعين على الآخر ينشأ سلوك موفق هو « السعال » الذي يرضي الدافع إلي السب والشتم إرضاءاً جزئياً ، لأنه يستخدم نفس العضلات التي يستخدمها السب والشتم ، فيصرف انفعال الغضب عن نفس الطريق ، وهو في نفس الوقت يرضي الدافع الخلقي لأنه يصرف انفعال الغضب على نحو لا يغضب المجتمع . هذا السلوك الموفق بين نزعتين متعارضتين نسميه « عرضاً » فالعرض إذن حل فاشل لصراع يقوم بين قوتين نفسيتين يعجز الأنا عن تغليب إحداهما على الأخرى .

والأعراض في الأمراض العصابية كالشلل الهستيري والإغراق في أحلام اليقظة من هذا القبيل ، إنها وسائل مخففة للتخلص من صراع نفسي بين الرغبات الغريزية الصادرة عن اللاشعور ، والدوافع الخلقية التى يمليها على الذات « الأنا الأعلى » .

ويمكن أن نعتبر السلوك اللا اجتماعى الذى نسميه تجاوزاً « إجرام الأحداث » عرضاً خاضعاً لنفس الميكانيزم .

والآن نعود إلي « س » فنراه يلتمس حلا لنوازعه بالتعبير عن انفعالاته المتصارعة تعبيراً موضوعياً هو ذلك السلوك اللا اجتماعى ، فهو يوجه دوافعه اللاشعورية إلي العالم ، ولو وجهها إلى نفسه في صورة أعراض بدنية (Somatic) أو تخيلية لاعتبرناه معصوبا . ولكنا رغم ذلك نستطيع أن نطبق فكرة « العرض » على ما صدر عنه من سلوك لا إجتماعي وسلوك « عدائى » نحو المجتمع .

كان « س » الصبي الوحيد بين أربع شقيقات ، وكان أصغرهم جميعاً . مات والده قبل أن يبلغ سن الرابعة ، فلقى من أمه عناية بالغة، دلله الجميع لجمال منظره وذكائه ولأنه الولد الوحيد في الأسرة . ابتدأ يزاول العادة السرية منذ السنة الخامسة ، وفي سن السادسة علمته إحدى شقيقاته الاتصال الجنسى بها وظل يعبث معها حتى بلغ الحادية عشرة[1] . كان

---

(١) لم يستعد « س » ذكرى هذه العلاقة الشاذة باخته إلا بصعوبة كبرى وجهد كبير من جانب الطبيب النفسانى . هذا يدل على أنها ذكريات ، ارتبطت فى ذهنه بانفعالات مؤلمة ، فكبتت هذه الانفعالات ، وكانت ببقائها فى اللاشعور عاملا من عوامل اضطراب سلوكه .

متديناً رغم هذا الشذوذ الجنسي الأمر الذي زاد من حدة إحساسه بالذنب طوال طفولته ، حتى أنه كثيرا ما كان يندفع في طريق سيارة محدثا نفسه « ليقتلني الله إن كنت مذنبا » ، وأحيانا أخرى يلقي بنفسه من النافذة ، أو يقفز من سطح منزل إلى آخر ، فإذا سقط أيقن أنه مذنبا . وظل الإحساس بالذنب ، والخوف من الموت، والقلق الشديد ، تحوم فوق رأسه طوال حياته ، وما أن تمت الجريمة حتى تزايد خوفه من الموت إلى درجة كبيرة وظل يترقب الانتقام من أبناء قتيله .

بدأ يسرق منفرداً منذ طفولته الباكرة ، ثم راح يسرق بصحبة أقرانه ، وتكررت سرقاته ، وطارده البوليس مراراً ، ولذلك نراه يتعرض لخطر السقوط من سطوح المنازل ، ورغم ذلك لم يقلع عن سرقاته لأنه كان يستشعر في مغامراته وتعرضه للموت لذة كبيرة .

في سن الحادية عشرة ابتدأ يتصل جنسيا بالذكور من رفاقه .

في الثالثة عشرة بدأ يتصل بالفتيات مستعيناً على ذلك بما يسرقه من نقود . كان مزاجه العام عنيفاً ، شديد الزهو بهذا العنف علاوة على حسن مظهره وقدرته الجنسية الفائضة .

هذه المادة من المعلومات الرئيسية تكفينا كي نرسم الخطوط الرئيسية لنموذج توافق « س » مع الحياة .

أم ذات شخصية قوية آمرة ، تنحي بجانبها شخصية الابن . ولد وحيداً في أسرة لا رجال فيها ، لا بد أن يحظى من الأم بعطف فائق . ظلت تدلله وتعنى به عناية بالغة فساعدته بذلك على أن يحتفظ بأسلوبه الطفلي في الحياة ، وأضعفت من استعداده للتنازل عن رغباته الغريزية الطفلية في سبيل إرضاء المجتمع . لذلك تأخر عنده نمو القدرة الاجتماعية ، وبالرغم من أن سن الخامسة أو السادسة ، هو السن التي يتحتم عندها أن يوقف الطفل دوافعه الغريزية نحو الأم ، ليوجهها إلى موضوعات خارج دائرة الأسرة نجد « س » يثبت عند مرحلة الطفولة فلا يطيق النوم إلا في حجرة أمه ، ولا تفتأ صورتها تعاوده في الحلم ، وتخطر على ذهنه في اليقظة إذ يزاول « العادة السرية » .

هنا ارتباط شاذ بأمه يعبر عنه علماء التحليل النفسي بلفظة « عقدة أو ديب » ، يصحب هذا الارتباط اضطراب انفعالي لا بد أن يحدث في المستقبل عصابا أو شذوذاً اجتماعيا .

من ذلك يسهل تفسير الإحساس بالذنب ، الذي أزاده تدينه وارتباطه الشاذ بأخته .

افتعل في نفسه دافعان عجز عن تغليب أحدهما على الآخر : دافع جنسي لاشعوري نحو

الأم (مظهره إحساسه الدائم بالحاجة إليها وعجزه عن مفارقتها) ، وآخر أخلاقي يمنعه من التعبير الصريح عن هـذا الدافع . صراع قائم بين قوتين جارفتين ، لابد من منصرف فيه إرضاء جزئى لـكليهما ، ولن يكون إلا سلوكا شاذاً ، أى عرضا ، ذلك هو توجيه دوافعه الجنسية نحو من يمثل الأم من فتيات يصادفهن في حياته . إذ لم يسكن شرهه الجنسى في حقيقة الأمر سوى إشباع للطاقة الغريزية التي سلبته أمه حق توجيهها نحوها .

صراع آخر : سخط لا شعورى على الأم التى حرمته بعطفها وقوة شخصيتها من تقرير شخصيته ، وجعلته تابعاً لها ، لقد حرمته من رجولته ولم تتح له فرصة التعبير الإيجابى عن ذاتيته ، وبعطفها عليه وقيامها على خدمته في كل صغيرة وكبيرة ، جعلته يحس أينما ذهب أنه لا يزال طفلا . لقد وضعت له المقياس الذى يقيس عليه عدالة كل معاملة يقابلها في حياته ، ولن يجد بطبيعة الحال من الأشخاص الذين يقابلهم فى حياته الاجتماعية معاملة تقرب من معاملة أمه ، فلا بد أن يعتبر الناس جميعاً قساة غلاظ القلب . فالأم بسلوكها نحوه هددت فيه مشاعر الأمن إذ أشعرته بتبعيته وسلبته شخصيته ، وقد يكون فى الظاهر راضياً على ذلك ، ولـكن دافعا لا شعورياً إلى التحرر من سلطة الأم والتعبير الحر عن ذاتيته كان يضطرم في نفسه مولداً فيها سخطا لا شعورياً على الأم ؛ يصارع هذا الدافع دافع أخلاقي آخر يحتم على « س » أن يبذل الحب لوالدته ويبقى إلى جوارها .

وكان الحل الموفق « العرض » لهذا الصراع ، سلوك شاذ هو محاولة فاشلة لحل هذا الصراع ، سلوك ذو شقين : الاتصال الجنسى بالفتيات تأكيداً لرجولته أو «العادة السرية » التى يزاولها تقريراً لذكورته التي حرمته أمه إياها ، والشق الثانى : السرقة وهي تعبير رمزى عن الرغبة في تأكيد الذكورة ، وكانت للسرقة مهمة أخرى ، هي أن ترضى الضمير اللاشعورى إرضاء جزئياً ، فقد كانت تعرضه للأخطار المميتة ، وفى ذلك عقاب للذات على ميولها الآثمة نحو الأم والأخت .

سلوك معقد ، وشذوذ مركب ؛ لم يكن يعنى فى نظر القانون إلا أمراً واحداً ، «جريمة فى حق المجتمع ، وثورة على الأخلاق » ، ولـكنه يعنى فى نظر علم النفس عديداً من الأمور ، إن طفلنا إذ يسرق ، كأنه يقول إنني رجل ، إنني أنتقم من السلطة التي حرمتنى من الاستقلال الشخصى كغيرى من الرجال ، إنني أتحرر من سلطان الأم ، إنني أنتقم من المجتمع القاسى الذى لا يعاملني معاملة الأم الحنون ، إنى أعرض نفسى

للأخطار أثناء سرقاتى فأنال العقاب الذى أستحقه جزاء رغباتى اللاشعورية الآثمة ، وأخيراً إنني بالسرقة أحصل على المال كى أحظى بالحب .

أما فعل « القتل » فلم يكن بدوره مستقلا عن الأسلوب العام فى التوافق الاجتماعي، وما كانت حوادث اليوم إلا حافزاً له .

مساء الحادث أثارت الأم غضبه (والأم هي بالنسبة إليه الدنيا بأسرها) ، لقد فضحت رغبته اللاشعورية في قتل غريمه ، مركزه الممتاز في الجماعة يهدده صبي آخر . (س اعتاد ألا يهدد مركزه إنسان أياً كان) ، عمد إلى احتساء الخمر[1]، فهو يهيء له فرصة التخلص من الحياة الواقعية ولو إلى حين ، فهو تعبير رمزى عن الرغبة في الانتحار فضلا عن إشباعه لرغبة طفلية (هي الأكل واستخدام الفم) [2] .

فقد وعيه تحت تأثير الخمر ، فانبثقت دوافعه الجنسية في عنف ، إلي حد محاولته الاعتداء على فتاة غير فتاته التى يحبها ، لأن فتاته ترمز إلى الأم . وفي اليوم التالى اكتشف محاولته الآثمة هذه ، وحنق على فتاته لإعراضها عنه ، ولما لم يكن تحت تأثير الخمر فقد عجز عن توجيه الحنق إلى هذه الفتاة وعول على أن يعاقبا بطريق آخر ، ذلك هو أن يصادق غيرها . لن يتيسر له ذلك بدون المال . إذن فليسرق . فبالسرقة يستطيع الحصول على أم أخرى غير فتاته فيحقق رجولته . لقد حرمته أمه من تمثيل دور «الرجل»[3] فأراد تمثيله مع الفتاة الأولى فأغضبته . ليمثله إذن مع هذه الفتاة الثانية . ومن هنا يتضح كيف أن سرقة النقود كانت تعبيراً رمزياً عن رغبته فى استعادة ذكورته .

هدد الرجل فلم يرضخ ومنعه من تحقيق رغبته ، سلطة جديدة تعترض رغباته الملحة وتمثل جميع السلطات التي جابهته في حياته الماضية ، فليحطم إذن في شخصها كل سلطان معاد لرغباته ، ولينتقم من المجتمع في شخصه ، وهو إن فعل ذلك حقق في نفسه رغبة لا شعورية أخرى لعقاب نفسه ، إذ أنه بارتكابه القتل يعرض نفسه لأذى محقق ، فأطلق الرصاص على العجوز المسكين وبذلك تمت المأساة ولم تكن إلا نتيجة للتجارب السابقة جميعاً التى كونت نموذج توافق « س » مع الجماعة .

---

(١) تضعف رقابة الضمير اللاشعورى فى حالات النوم والسكر والاغماء فيفسح المجال للرغبات الغريزية تعبر عن نفسها .

(٢) تراجع إلى الطفولة حيث اللذة ثابتة عند المستوى الحسى وخصوصا المستوي الفمى ، فمن الفم يشتق الطفل لذته بالأكل أو الكلام أو التقبيل .

(٣) لا أقصد بدور الرجل هنا معنى جنسياً .

الصدمة النفسية والحرمان من العطف

« ا » تلميذ بإحدى المدارس الثانوية المصرية ، في التاسعة عشرة من عمره ، ذكاء فوق المتوسط ، دائم الاصطدام بأساتذته ؛ عنيف المزاج ، جاف في معاملاته . يلخص سلوكه اللا اجتماعي فيما يأتى : —

١ — عداء نحو السلطة (الأب والمدرسون)
٢ — اعتداء على أقرانه وعنف فى معاملتهم .
٣ — إفراط فى الاتصال الجنسى بالفتيات .
٤ — شرود ذهنى خاصة أثناء الدروس [١] .

ولنحاول الآن تفسير كل عنصر من عناصر الشذوذ : نرجع مع « ا » إلى حياته الأولى ونستمع إليه يحدثنا عنها « لقد تركت طفولتي فى نفسى أسوأ الأثر لأنني قضيتها فى الصحراء مع والدتى البدوية ، عند ما طلقها والدي وأنا فى السنة الأولى من حياتى. مرت وأتذكرها وأنا ألعب مع فتيان البدو ، وأرعى الغنم ، وأمشى حافي القدمين ، لا يستر جسمي إلا جلباب ممزق ، وهى تبدو لى مملة فارغة . حياتى كلها شقاء وضرب من الأوهام » .

تزوج والده من أمه ، الفتاة البدوية الجميلة . إلا أنه لم يكن زواجاً ثابتاً [٢]، إذ لم يكن الوالد صحراوياً ، بل موظفاً حكومياً يضطره عمله إلى التنقل . ترك الزوجة بعد أن أنجب منها « ا » وطفلة أخرى ، أصبحت العائلة بدون أب ، وأصبح « ا » هو الرجل المرتقب لحظي من الأم وأهلها بكل عطف وحنان ، وظل على ذلك عشر سنوات حين رأى أباه لأول مرة ، وحين جاء والده ليأخذه من والدته ويدخله بعيداً عنها مدرسة ابتدائية بإحدى الواحات حيث أودعه أحد أصدقائه .

بذلك حرم من عطف الأم ، ونقله من البيئة الصحراوية حيث الحرية المطلقة وحيث

---

(١) استعنت فى جمع المعلومات عن هذه الحالة باستخبار علم النفس الذى وضعه الدكتور يوسف مراد فى العدد الثانى من السنة الأولى من مجلة علم النفس . فضلا عن ملاحظتى للشخص ذاته فى حياته المدرسية وخارجها ، والاتصال الشخصى به فى معرفة تاريخ حياته .

(٢) الزواج لدى بدو الصحراء الغربية فى مصر يتم دون عقود زواج ، وكان هذا التقليد سبباً في حالة اجتماعية خطيرة لايلتفت إليها ! ذلك أن الموظفين الحكوميين يستغلون سذاجة البدو فيتزوجون من بروقهن من فتيات البدو — ومعظمهن جميلات — زواجا يدوم حتى ينقل بحكم عمله إلى مكان آخر فيغادر الزوجة بأولادها دون مبالاة حيث لاوجود لعقد رسمى يقيده .

تجيب الأم له كل رغبة ، إلى البيئة المدرسية حيث القيود ، وحيث لا تتحقق له رغبة .

بعد عامين من افتراقه عن أمه ، تسلم ناظر المدرسة برقية تضمنت خبر وفاة الأم . استدعى الناظر « ا » وأخبره بالأمر فلم يبد عليه التأثر ولم يبك . لم يكن يفقه الموت بعد . تسلم البرقية وأعاد قراءتها مرات ، ولم يفطن إلى مصابه إلا فى المساء حين شغل طوال في التفكير في معني الموت ، وتخيل أماً راقدة في قبرها تحت التراب . حينئذ أيقن أن الأم قد ذهبت إلى غير عودة وزاد وقع المصاب حين تسلم بعد أيام خطاباً جافاً كل الجفاف من والده يخبره فيه بنفس الأمر .

بدأ ينفرد وحده في حجرة بالمنزل كى يبكى ساعات و يذكر أمه التي لم يرها منذ عامين . ساعدته هذه الوحدة أن يطيل التفكير في سر الموت وبعض المسائل المتعلقة بأسرار الوجود فاكتسب عادة الشرود الذهنى (١) . لقد كانت صدمة نفسية عنيفة اعترضت حياته الانفعالية فأصابتها بالخلل ، وسببت له اضطرابا شديداً وليس أدل على ذلك من قوله :

«حياتي كلها شقاء ، بل ضرب من الأوهام ، لأن والدتى توفيت وأنا فى سن الثانية عشرة ، وكنت حينذاك في السنة الثانية الابتدائية ، وتزوج والدي من امرأة أخرى . ولذلك ، كانت حياتي كلها بؤس وشقاء ، وإن كانت هناك فترات من الهدوء فهي قصيرة جداً ولا أتذكرها . »

وحيد أمه ، والولد الذي يفضل الأخت كما هي العادة فى الأسرة المصرية ، فاستحوذ على عطف الأم وأهل الأم ؛ حرم من أبيه العشر سنوات الأولى من حياته ، والمعلوم أن شخصية الطفل تتحدد إلى حد كبير في السنوات الخمس الأولى من حياته ، فلم تتهيأ له فرصة تمثل صفات الأب وامتصاص شخصيته الرجالية . وعلاوة على ذلك لم يعتد تأجيل رغباته . حتى إذا خرج إلى المجتمع لم يجد المعاملة التي حظى بها من قبل فى كنف الأم حيث لاسلطة تعارض رغباته . هنا نبتت في نفسه مشاعر النقمة على المجتمع ، وابتدأ ينظر إليه نظرة الخصم غير المستعد للتعامل السوى معه .

وما أن اتصل بوالده حتي لقى من العنت ما لم يعهده ، حب أمه له غرس فيه الشعور بالتبعية ، وقسوة الأب بعد ذلك هددت شخصيته وعرقلت نمو ذاتيته . هذان العاملان أفقدا « ا » الشعور بالأمن وأحلا بدلا منه شعوراً بالنقص ولد في نفسه إحساساً بأن

---

(١) يبدى هذا الطالب ، رغم سلوكه اللا اجتماعى . استعداداً للتفكير الفلسفى ، ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى أحداث طفولته .

شخصيته في خطر ، وهذا هو السر في حساسيته المرهفة الثائرة وتفسيره كل موقف من زملائه أو مدرسيه على أنه جارح لكرامته . لم يعرف أباه إلا عند ما جاء ليدخله المدرسة ، فخبرته بأبيه اقترنت بدخوله المدرسة ، وخبرته بالمدرسة اقترنت في ذهنه بخبرة مؤلمة أخرى ، هي حرمانه من الأم ، ثم فقدانه إياها بالموت . وهذا تفسير كراهيته للأب وكل من يمثل الأب من مدرسين أو سلطة تقف دون رغباته ، وكراهيته للنظم المدرسية وانعدام الانسجام بينه وبين أقرانه فيها . وامتدت هذه الكراهية فشملت المدرسة على الثانويه . وتزيد ذلك أن معاملته الشاذة لأقرانه كان يزيد من حدتها إحساسه بالنقص الناتج عن التربية الأولى ، فضلا عن قصر قامته قصراً كبيراً ، وقلة حظه من الجمال[١] .

هذا الإحساس كان داعياً إلى التعويض ، الذى كان يتخذ أحياناً شكلا اجتماعياً سوياً وأحياناً أخرى شكلا شاذاً . أما الشكل السوي فيبدو فى تفوقه فى مختلف نواحي النشاط المدرسي : الرياضة البدنية[٢] ، التمثيل ، تقليد الممثلين ومشاهير الراقصات ، تفوق فى التهريج فى الرحلات المدرسية ، اهتمام بتنسيق مكتبه وكراساته ، أناقة خطه . أما الشكل الشاذ فيبدو في وقوفه من أساتذته وإدارة المدرسة موقف التحدي ، وتحفزه لمحاسبتهم على أي خطأ يبدونهم ، وتحريك الثورات ، واصطدامه بأقرانه ، وغضبه منهم أعنف الغضب إزاء أتفه الأخطاء المقصودة وغير المقصودة .

عن هذا القلق على ذاتيته ، وإحساسه الدائم بالنقص ، نشأ العنصر الثالث من سلوكه اللا اجتماعي ، وهو الاهتمام بتكوين العلاقات الجنسية بالفتيات الساقطات . لم يكن ذلك إلا تعبيراً عن ذكورته ، وتأكيداً لذاتيته التي هددتها الأم ببذلها العطف كله ، والأب بقسوته ، وتنفيساً عن رغباته اللاشعورية التي لم تجد إشباعاً فى طفولته . كتب إلى يقول :

«شعوري إزاء الجنس الآخر شعور غريب . فإنى إذا رأيت أية فتاة ، أو امرأة ، أحب أن أتصل بها مباشرة ، وأتمنى ذلك ، وإنى أحب لمجرد الشهوة ، وأتصل كثيراً جداً بالنساء وكلما خلا بى الجو بفتاة — ولو كانت قريبتي — تنتابنى عوارض شتى ، وأعتقد بأن من أحدثها ترى ذلك ، لأنى ألمس الرغبة فى عينيها . وإنى أكتب لك هذا والقلم يضطرب فى يدى ، كثيراً ما أفكر فى الفصل فى مناسبات من هذا القبيل ، وأعتقد

---

(١) يبدو ذلك من قوله : أعتقد أننى غير جميل ولذلك لا أقدم على معاكسة الفتيات إلا التى تؤجر منهن .

(٢) من أبطال فريق كرة القدم بالمدرسة .

أن ذلك مرض ينتابني » (١) ثم يستطرد « ! » « أعتقد أنى غير جميل ، ولذلك لا أقدم على معاكسة الفتاة إلا التي تؤجر أى التي تبيع عرضها »

وهكذا يفسر العنصر الأخير وهو شرود الذهن والإغراق فى أحلام اليقظة . لقد افتقد السعادة ، والهدوء الانفعالى فلا بد أن يلتمسهما فى عالم الخيال ، وهو قد فقد بسبب تربيته الأولى الانسجام مع المجتمع فمعظم المواقف لا تسره ولذلك يتهرب منها بالإغراق فى أحلام اليقظة . هذا إلى أنه دائم التفكير فى الجنس الآخر ، كلف بإشباع رغباته الغريزية ، فيجد لها منصرفاً فى أحلام اليقظة عند ما يعز عليه إشباعها فعلياً ، هذا فضلا عن انشغاله بحب فتاة « ملكت عليه كل لبه » إلا أنه لا يفكر فيها جنسياً ، بل ولم يحظ بخطابها حتي كتابة هذه السطور — هذا رغم انحرافه الجنسى — ولا يبعد أن يكون ذلك راجعاً إلى أنها رمز للأم الطيبة التي كان يقدسها ، فهى بديل الأم التى حرم منها منذ أمد بعيد ، وحرم من توجيه انفعالات الحب نحوها الوقت الكافى ، هذا القول يفسر لنا عجزه عن التحرر من التفكير فيها كما يقول : « هذه الفتاة تشغل كل فكري ، فأرجوك إنقاذي . هذه الفتاة تكاد تقضى على مستقبلى الدراسى »

لم يعد غريباً علينا شرود ذهنه فى معظم الدروس؛ ولكن أحداً من أساتذته لم يكن على استعداد ليرى فى هذا الشرود إلا أنه دلالة على الإهمال ، الأمر الذى زاد توتر العلاقات بينه وبينهم .

تبين بعد هذا المقال كيف تؤدي الصدمة النفسية Psychic Trauma فى النهاية إلى الاضطراب السلوكى . ولكن يجب أن نذكر أن الصدمة وحدها لا تكفي لإحداث هذا الاضطراب ، بل لا بد أن يكون الشخص على استعداد من قبل لهذا الاضطراب بسبب خبرات الطفولة المبكرة ، وقد كانت خبرات « ا » القديمة خبرات مؤلمة إلى حد يدعونا إلى الاعتقاد بأنه كان من المحتمل جداً أن يصاب بأحد الأمراض العصابية neurosis ، ولكن حل محله لحسن الحظ سلوك موضوعي (لا اجتماعي) موجه إلى المجتمع لا إلى ذاته فنجا بذلك من الملانخوليا Melancholia

تبعة على المجتمع

تبين مما سبق أن انعدام التوافق الاجتماعى نتيجة عمليات نفسية فى تفاعل ديناميكي

(١) هذه الكلمة تعبير صادق عن قلق نفسى معذب ، وفقدان تام للسعاده .

أصيبت بخلل . ونضيف إلى ذلك أن الظروف البيئية الخارجية هى التي تسبب هذا الخلل فالمنزل أو المجتمع بوجه عام ، هو الذي يمد الطفل بالحنان أو يسلبه منه ، أي أنه هو الذى يعين شكل نمو طاقته الغريزية أهي علاقة حب سوية ، أم علاقة عداء ، أم ارتباط غريزي شاذ . وهذه العوامل المنزلية الهدامة يحرها المجتمع الخارجى . إنه هو الذي يزود المنزل بإمكانيات التربية السوية :

فالأب الذى يعمل كادحا آناء الليل وأطراف النهار تحرمه ظروف العمل القاسية من قضاء وقت معقول مع أبنائه ، وتحرم هؤلاء الأبناء فرصة تمثيل شخصية الأب وامتصاص مثل الجماعة ومستوياتها الخلقية عنه . والعامل ، دائم القلق على وظيفته الذي يكتنفه خوف دائم من فقدان عمله وبالتالى من فقدان مركزه الممتاز في الأسرة ، قد يعبر عن هذا القلق والخوف بالتحكم في أبنائه ومعاملتهم في قسوة ، ولا بد أن يوحي إليهم بنفس النظرة التشاؤمية وبذلك يؤثر تأثيراً سيئا في نموهم الانفعالى . وقد تضطر الظروف الاقتصادية الأم الأرمل إلى ان تتزوج ممن يهمل أبناءها ، أو تنزلق تحت ضغط الحاجة إلى مهاوي الرذيلة ، فيكون لمسلكها أثرمدمر في نمو أطفالها وتكوين شخصياتهم .

والجهل ، كثيراً ما يدفع الآباء إلى أخطاء تربوية ، يكون لها أثر خطير على شخصية الطفل ، أو لا نري أن كثيراً من حالات العداء بين إخوة تعدوا سن الشباب ، يرجع إلى جفاف علاقاتهم أيام كانوا أطفالا بسبب تصرفات سيئة اندفع فيها الآباء عن جهل ؟

كل هذه الحقائق تزيدنا يقينا أن علاج مشكلة إجرام الأحداث ليس بيد علماء التحليل النفسي ، الذين لا يتعدى أثرهم حد علاج بعض الأفراد ، وإنما هو بيد المجتمع الذى يستطيع الوقاية بتغيير الأوضاع الاقتصادية الجائرة ، والقضاء على العلل الاجتماعية كالفقر والمرض ، بحيث يحقق الهناء المادى لأكبر عدد ممكن من المواطنين ، فذلك كفيل أن يحقق الطمأنينة النفسية ، والأمان الانفعالى (emotional security) الذى يعتبر بحق الاساس الأول من أسس الصحة النفسية .